الفصل الحادي عشر

طوائف من الشعراء

١

الفرســان

رأينا القبائل في الجاهلية تعيش معيشة حربية، فهي كتائب تنزل للرعي، وفي الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كي تدفع خصومها عن مراعيها، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل. وكانوا يحاربون راجلين وركبانًا على الإبل والخيل، وكانوا يرون في الثانية مزية على الأولى لسرعتها في الطراد والإغارة، فأحبوها وعنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق. وقد دارت أوصافهم لها في شعرهم الجاهلي، فلم يكادوا يتركون عضوًا من أعضائها إلا وصفوه، ولا خصلة ولا عيبًا إلا ذكروهما، وفي معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم، وممن اشتهر بوصفها أبو دؤاد الإيادي وطفيل الغنوى وسلامة بن جندل التميمي.

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة في حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم، وهم كثيرون، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركون الخيل طويلاً وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم. وتلقانا دائمًا أسماؤهم وخاصة في حروبهم الطويلة مثل حرب البسوس وفارسها المهلهل التغلبي، وهو الذي أشعل نيرانها ثأرًا لأخيه كليب، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقه[1]. وشعره يدور في رثاء أخيه وتوعد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكًا عن هزائمها السابقة، وكانت الحرب كما قدمنا في غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب سجالاً، تارة

(١) أنظر أخباره في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥/ ٣٤ والشعر والشعراء ١/ ٢٥٦ وخزانة الأدب للبغدادي ١/ ٣٠٢.

تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك. وكان لا يني يحمس قومه ويدعوهم إلى واصلة القتال، مفصحًا في أثناء ذلك عن رغبة حارة في الانتقام، واسمعه يقول:[1].

وإني قد تركت بواردات ... بحيرا في دمٍ مثل العبير[2].

وهمام بن مرة قد تركنا ... عليه القشعمان من النسور[3].

وصبحنا الوخوم بيوم سوءٍ ... يدافعن الأسنة بالنحور[4].

كأنا غدوة وبني أبينا ... بجوف عنيزةٍ رحيا مدبر[5].

فلولا الريح أسمع أهل حجرٍ ... صليل البيض يقرع بالذكور[6].

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر في موقعة واردات وموقعة عنيزة، وقد قتل في الأولى بجير بن الحارث بن عباد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكر من حر اللقاء.

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطفيل[7]. فارس بني عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوزان وأشدها بأسًا،وكان بنو عامر ينتشرون في أواسط نجد شرقين الحجاز، وجنوبي منازل عبس وذبيان، وغربي منازل بني تميم، وكانت مراعيهم تمتد جنوبًا حتى بني حنيفة في اليمامة وبني الحارث بن كعب في نجران ومذحج في شمالي اليمن. ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص١٧٤ والأغاني ٥/ ٥٣.

(٢) واردات:موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب في حرب البسوس. العبير: الزعفران.

(٣) القشعم من النسور: الضخم، وهمام: أخو جساس قاتل كليب.

(٤) الوخوم: عشيرة من بكر.

(٥) عنيزة: موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس. والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما في الأخرى، والصورة واضحة.

(٦) حجر: قرية باليمامة. البيض: خود الحرب. يقرع: يضرب. والذكور: أجود السيوف وأيبسها وأشدها.

(٧) أنظر أخبار عامر في الأغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ٥٠، وراجع ترجمته الشعر والشعراء ١/ ٢٩٣ وأنظر الخزانة ١/ ٤٧٣، ٢/ ٤٩٢ والمعمرين ص٦٠ وشرح النقائض في يوم فيف الريح ص٤٦٩ وشعب جبلة ص٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥/ ٥٦ والسيرة النبوية ٤/ ٢١٣.

صف عبس، فاصطدمت بذبيان وأحلافها. وقد جعلهم انتشارهم في أواسط نجد يحاربون قبائل كثيرة مضرية ويمنية.

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لايل مع ديوان عبيد بن الأبرص في سلسلة جب التذكارية، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه في حروب قومه مع ذبيان في يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرهما من الأيام. وقد أظهر بطولة نادرة في يوم فيف الريح وكان لقومه على بني الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج، وتغنى به طويلاً في شعره على شاكلة قوله[1]:

لقد علمت عليا هـوزان أننـي ... أنا الفرس الحامي حقيقة جعفـر[2].

وقد علم المزنوق أنـي أكـره ... على جمعهم كر المنيح المشهـر[3].

إذا أزور من وقع الرماح زجرتـه ... وقلت له: ارجع مقبلاً غير مدبـر[4].

وأنبأتـه أن الفـرار خزايـة ... على المرء ما لم يبل جهدًا ويعـذر[5].

ألست ترى أرماحهم في شرعـا ... وأنت حصان ماجد العرق فاصبـر[6].

وقد علموا أنـي أكـر عليهـم ... عشية فيف الريح كر المـدور[7].

وما رمت حتى بل نحرى وصـدره ... نجيع كهداب الدمقس المسيـر[8].

---

(١) المفضليات ص ٣٦١.

(٢) عليا هوزان: مجموعة من قبائلها هي سعد وجشم ونصر وثقيف. وحقيقة: حمى. جعفر عشيرة عامر، وهي جعفـر بـن كلاب ابن ربيعة بن عامر.

(٣) المزنوق: اسم فرسه. المنيح: من قداح الميسر ويكثر جولانه في القداح. فكلما خرج منها رد فيها.

(٤) أزور: مال وانحراف.

(٥) خزاية: خزى. يعذر: يأتي يعدر.

(٦) شرعًا: مسددة.

(٧) المدور: الذي يطوف بالدوار وهو من أصنامهم.

(٨) ما رمت: ما برحت. النجيع: الدم. الدمقس: الحرير. المسيرك برود من اليمن بها خطوط.

وهو يصور في هذه القطعة اقتحامه للحروب، وكيف أنه لا يتخلى عن بسالته الحربية، حتى يحمي عشيرته وضعفاءها ونساءها، ويقول إنه لا يزال يرد إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها، وإن أزور عنها أو انحرف دفعه فيها دفعًا، أما الفرار وعاره فدونه الموت، ويدعو فرسه إلى التأسى به، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال، ويدعو فرسه إلى الصبر معه، حتى ينالا شرف النصر جميعًا، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الريح وما أظهر فيه من بسالة، ويقول إنه لم يبرح موضعه في ميدان القتال، حتى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء.

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرته لعلقمة بن علاثة ابن عمه، بسبب مناقستهما على سيادة عشيرتهما، وقد احتكما إلى هرم بن قطبة الفزاري، فسوى بينهما- كما مر بنا- في عبارته المأثورة إذ قال لهما: "أنتما كركبتي البعير الأدرم (الفحل) تقعان إلى الأرض معًا". وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا في صف عامر ضد علقمة. وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة، غير أن الله لم يوفقه للإسلام، فمضى على وجهه، والرسول غضبان عليه، ولم يلبث أن مات بالطاعون على اثنتين وستين سنة.

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنترة بن شداد[1] (وقيل ابن عمرو بن شداد) العبسي، وكان أبوه من أشراف عبس، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة، وقد ورث عنها سواده، ولذلك كان يعد من أغربة العرب، كما ورث عنها تشتق شفتيه، ولذلك كان يقال له عنترة الفلحاء. وكان من عادة العرب في الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة. ومن ثم لم يعترف شداد يعنترة ابنًا له إلا بعد ما أبداه من بسالة في حروب داحس والغبراء، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذي أصابه في الصميم، وفي ذلك يقول[2]:

---

(١) أنظر في عنترة الأغاني (طبعة دار الكتب) ٨/ ٢٣٧ والشعر والشعراء ١/ ٢٠٤ وما بعدها والخزانة ١/ ٥٩ وراجع ديوانه برواية الأصمعي، في مخطوطة الشنتمري "شرح الدواوين الستة" بدار الكتب المصرية. وقد طبع مصطفي السقا نص المخطوطة بشرح مختصر في مجموعة "مختار الشعر الجاهلي". وطبع الديوان طبعات أخرى في بيروت والقاهرة وليدن.

(٢) مختار الشعر الجاهلي ص٣٨٨.

إني امرؤ من خير عبس منصبـاً شطرى، وأحمى سائري بالمنصـل[1].

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظـت ألفيت خيرًا من معـم مخـول[2].

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوي أو شطره الأول، أما شطره الثاني من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب، حتى غدا في قومه خيرًا ممن عممه وخاله من سادتهم، إذا لا يغنى القبيلة أحد غناءه ولا يذود عن حماها ذياده، ويصور لنا في نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويرًا باهرًا إذ يقول:

بكرت تخوفني الحـتوف كأننـي أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل[3].

فأجبتها إن المنيـة منهـل لابد أن أسقى بكأس المنهل[4].

فاقني حياءك لا أبالك واعلمـي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل[5].

إن المنية لو تمـثل مثلـت مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل[6].

والخيل ساهمة الوجـوه كأنمـا تسقى فوارسها نقيع الحنظل[7].

فهولا يستمع إلى تخويف صاحبته له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب، بل إنه ليصمم أذنيه عن ندائها قائلاً لها إن المنية مورد كل إنسان ولابد أن أموت، فليكن موتى شريفًا في ميدان الحروب. ويدعوها أن تصون حياءها، فهو ميت على كل حال، وخير له أن يموت مناضلاً عن قومه مدافعًا عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم. ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم في نفسه، فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت في مثال لكانت في مثل صورته وخلقته، وهو

---

(١) منصبًا: أصلاً. المنصل: السيف.

(٢) تلاحظت: نظرت من يقدم على العدو.

(٣) الحتوف: المتالف.

(٤) منهل: مورد.

(٥) أقنى: احفظي وصوني.

(٦) الضنك: الضيق.

(٧) ساهمة: متغيرة.

يقتحم الصفوف، والخيل ساهمة من هول الحرب، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل.

وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية، وما زالت ذاكره عالقة بأذهان العرب إلى اليوم، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية، وقد اتخذت من أخباره نواة للملحمة المعروفة باسمه والتي يمكن أن تعد إلياذة العرب، وهو فيها يحارب في الجزيرة العربية وخارجها في الحبشة وإيران وبلاد الروم والفرنج وشمال إفريقية والأندلس، وينازل الصليبيين، وبذلك كانت هذه القصة أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم في الجاهلية وفي الفتوح الإسلامية وبعد الفتوح في حروبهم مع الروم ولاصليبيين في الشرق والغرب.

ونحن لا نعني الآن بعنترة الأسطورة، إنما نعني بعنترة الفارس الجاهلي الذي دوخ الأقران والأبطال في حروب داحس والغبراء، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلح شفتيه، والذي لا شك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية.

ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضربًا من التسامي والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائمًا بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة، واقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحملهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار. وهو جانب واضح في أشعار عنترة، ونظن ظنًا أنه نماه عنده ما قصة الرواة من أنه طلب عبلة من عمه مالك فأباها عليه لسواده، ولأنه ابن أمة، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس. ومن ثم كان يمكن أن يعد أبًا لشعر الحب العذري عند العرب، كما يعد فعلاً أبًا للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السايمة التي استرعت أنظار الصليبيين، فاتخذوا منها مثالاً لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عذري[1].

(١) أنظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع، الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص٤٤٦ وما بعدها.

وردد البصر في أشعار عنترة فستجده يأسر لبك بمثله الخلقية الرفيعة، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغي على غيره ولا يحتمل البغي ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم، فإن ظلم تحول كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه. وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته، وإذا دعاه داعي المكرمات لبى باذلاً كل ما يملك عن طيب نفس، يقول- في معلقته- مخاطبًا ابنه عمه عبلة التي شغف قلبه بها حبًا:

أثنى على بما علمـــت فإننـــي سمح مخالقتي إذا لـــم أظلـــم

فإذا ظلمت فإن ظلمـي باســل مر مذاقته كطعـــم العلقـــم[1].

وإذا شربت فإننـــي مستهلـــك مالي، وعرضي وافر لـــم يكلـــم[2].

وإذا صحوت فما أقصر عن نـــدى وكما علمت شمائلـــي وتكرمـي

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته في الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصب عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويصمى. ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه، فيقول:

يخبرك من شهد الوقائـــع أننـــي أغشى الوغي وأعف عند المغنـم[3].

فهو يقدم في أهوال الحروب وخطوبها، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها. إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار. وما يزال يحدثنا في شعره عن كرامته، وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان، يقول في لاميته[4]:

ولقد أبيت على الطـــوى وأظلـــه حتى أنال به كريـــم المأكـــل

---

(١) باسل: كريه.

(٢) يكلم: يجرح.

(٣) الوغى: الحرب.

(٤) مختار الشعر الجاهلي للسقا ص٣٨٧، والطوى: ضمور البطن، ويريد به الجوع الشديد.

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الخبيث الدنئ. وعلى هذه الشاكلة ما تزال تلقانا في أشعاره معان نبيلة، وهي معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل الخلقي، حتى لنراه يرقى لأقرانه الذين يسفك دماءهم، يقول- في معلقته- وقد أخذه التأثر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم:

فشككت بالرمح الطويـــل ثيابـــه ليس الكريم على القنا بمحـــرم[1].

فهو يرفع من قدر خصمه، فيدعوه كريمًا، ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء في ساحة القتال. وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذي يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم، يقول مصورًا آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية:

فازور من وقع القنـــا بلبانـــه وشكا إلى بعبـــرةٍ وتحمحـــم[2].

لو كان يدري ما المحاورة اشتكـــى ولكان لو علم الكـــلام مكلمـــي

وكأنما فرسه بضعة من نفسه. وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات وغير سبيات، فإذا سبى امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها. وكما للسبية حرمتها كذلك لامرأة جاره، وخاصة إذا كانت زوجة صديق، فإنه يغض طرفه عنها ولا يتبعها قبله وهواه، يقول[3]:

ما استمت انثى نفسها في موطـــنٍ حتى أوفي مهرهـــا مولاهـــا[4].

أغشى فتاة الحي عند حليلهـــا وإذا غزا في الحـــرب لا أغشاها[5].

وأغض طرفي ما بدت لي جارتـــي حتى يوارى جارتـــي مأواهـــا

إني امرؤ سمح الخليقة ماجـــد لا أتبع النفس اللجـــوج هواهـــا

---

(١) يريد بالثياب جسده وبدنه.

(٢) أزور: مال وانحرف. اللبان: الصدر. التحمحم. صهيل فيه شبه الأنين.

(٣) مختار الشعر الجاهلي ص٤٠٩.

(٤) استهام المرأة: روادها عن نفسها. الموطن هنا: موطن القتال.

(٥) أغشى: أزور.

وعنترة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة، وهي مروءة طرزها حب عذري عفيف لابنه عمه عبلة، وحقًا إن هذا الحب إنما شاع في بوادي نجد في أثناء العصر الأموي، بسبب المعاني الروحية التي بثها الإسلام في نفوس العرب، وهو لم يشع في الجاهلية، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة، فقد كان يتسامى لا في خلقه فحسب، بل أيضًا في حبه، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده، فلم يزوجه من ابنته. ومضى يحبها حبًا عنيفًا، أو قل حبًا يائساً محرومًا فيه طهارة النفس ونفاؤها وفيه الفؤاد الملذع الذي يكظم حزنه فتفضحه عبراته، يقول[1]:

أفمن بكاء حمامةٍ فـي أيكـةٍ ذرفت دموعك فوق ظهر المحمـل[2].

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذي يهب من صوبها، وكما تهيجه الرسوم والأطلال، إذ يبعث الحنين بعقله وبقلبه، يقول في معلقته:

حييت من طللٍ تقـادم عهـده أقوى وأقفر بعد أم الهيثـم[3].

ولقد نزلت- فلا تظنـي غيـره- مني بمنزلة المحـب المكـرم

ودائمًا نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها، لا لغاية حسية، ولكن ليمتع طرفه بجمالها. ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها في معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية، فمن أجلها يحارب ويستبسل في القتال، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمي حماهم، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده. وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج، يقول:

ولقد ذكرتك والرمـاح نواهـلٌ منى وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيـوف لأنهـا لمعت كبارق ثغـرك المتبسـم

---

(١) مختار الشعر الجاهلي ٣٨٧.

(٢) أيكة: شجرة. ذرفت: سالت. المحمل: علاقة السيف.

(٣) أقوى وأقفر: خلا ممن كان يسكنه.

فهو دائم الذكر لها في وغي الحرب، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر، فلا غرو أن يذكرها في ساعات القتال الحرجة، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس، بل يبتسم، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف، فيؤمن بأنه منتصر.

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة، فلم تصبح فروسية حربية فحسب، بل أصبحت فروسية خلقية سامية، فيها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب، وفيها التسامى عن الدنايا والنقائص الذي يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق. ويقال إنه قتل في غارة له على بني نبهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه، ويقال بل مات حتف أنفه[1].

(١) أنظر الأغاني ٨/ ٢٤٥.

٢

الصعاليـك[١]

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق. ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات: مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحدادية وأبى الطمحان القينى، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلسكة وتأبط شرًا والشنفري، وكانوا يشكرون أمهاتهم في سوادهم فسمواهم وأضرابهم باسم أغربة العرب، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافًا، وحينئذ قد تكون أفرادًا مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.

وتتردد في أشعارهم جميعًا صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائين، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو، فيقال: "أعدى من السليك" و "أعدى من الشنفري" وتروي عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجان، من ذلك ما يقال عن تأبط شرًا من أنه "كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء، فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه، فلا يفوته، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله[٢]". وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخليل والإغارة عليها، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النحام[٣]، وللشنفري فرس يسمى اليحموم[١]، أما اسم فرس عروة بن الورد فقرمل[٢]. وكانوا يغيرون أحيانًا فرادي وأحيانًا في جماعات.

---

(١) راجع بحثًا في الشعراء الصعاليك ليوسف خليف (طبع دار المعارف).

(٢) الأغاني ١٨/ ٢١٠.

(٣) ذيل الأمالي للقالى ص١٨٨.

وكانت أكثر المناطق التي يغيرون عليها مناقط الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها في جبال السراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية ففي كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطاع الطرق وقراصنة الصحراء. وهم في أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم في أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيرًا من البر بالأقارب والأهل، وأيضًا فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة في الحياة، ويصور لنا ذلك أبو خراش الهذلي فيقول[٣]:

وإني لأثوى الجوع حتى يلمنـــي ... فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمى[٤].

وأغتبق الماء القراح فأنتهـــي ... إذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم[٥].

أرد شجاع البطن قد تعلمينـــه ... وأوثر غيري من عيالك بالطعم وللموت

مخافة أن أحيا برغمٍ وذلـــةٍ ... خير من حياةٍ علـــى رغـــم

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع، حتى ينكشف عنه، دون أن يلحقه فيه ضيم، وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم من حوله اشحاء النفوس بالطعام، أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده. وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل. وسنرى عما قليل قروة بن الورد يعبر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عنترة. وكأنما تحولت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية، وهي حقًا تقوم على السلب والنهب، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيدًا كريمًا، واقرأ في صعاليك هذيل من مثل أبي كبير والأعلم وفي السليك وتأبط شرًا وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته في الحياة أو على الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقا رفيعًا من البر، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقًا منهم عاش سفاحًا لا يرعى عهدًا

---

(١) ديوانه المطبوع في لجنة التأليف والترجمة والنشر ص٤٠.

(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص١٢٠.

(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/ ١٢٧ والأغاني ٢١/ ٤٢.

(٤) أثوى: أطيل حبسه.

(٥) أغتبق: أشرب عشاء. القراح: الصافي. المزلج: البخيل.

ولا ذمة. ونقف قليلاً عند أكثرهم دورانًا على الألسنة، وهم تأبط شرًا والشنفري وعروة بن الورد.

أما تأبط شرًا فمن قبيلة فهم واسمه ثابت[1] بن جابر بن سفيان ويعد في أغربة العرب، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها، وقيل بل أمة حرة من فهم تسمى أميمة. واختلف القدماء في تعليل لقبه "تأبط شرًا" فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفًا وخرج، فلما سئلت عنه قالت: تأبط شردًا ومضى لوجهه، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جرابًا مليئًا بالأفاعي. وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر، أي إنه يحمل دائمًا في أطوائه شرًا يريد أن ينفذه. ويظهر أن أباه مات وهو صغير، فتزوجت أمه بأبي كبير الهذلي، وكان صعلوكًا كبيرًا، فخرجه على شاكلته، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلكه. وكان يرافق الشنفري في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن براق. وليس له ديوان شعر مطبوع، غير أن له أشعارًا كثيرة منثورة في كتب الأدب، وتروى له مغامرات مختلفة، وهي مطبوعة بطابع القصص الشعبي، مما أتاح للانتحال أن يلعب دورًا واسعًا فيما نسب إليه من أشعار، فمن ذلك لاميته التي أنشدها أبو تمام في حماسته يرثى بها خاله والتي تستهل بقوله: "إن بالشعب الذي دون سلع" فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر[2]. ويمكن أن ندخل في هذا الباب من الانتحال ما يروي له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجن أو للغول. وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفري وعمرو بن براق على بجيلة في الطائف، إذا أرصدوا لهم كمينًا على ماء أوثنتهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة، نجوا بها عدوًا على الأقدم، ويصور لنا عدوه وشده السريع حينئذ فيقول:

---

(١) أنظر ترجمته في الأغاني ١٨/ ٢٠٩ والشعر واشعراء ١/ ٢٧١ وشرح شواهد المغنى للسيوطي ص١٩، ٤٣ والخزانة ١/ ٦٦.

(٢) أنظر تعليق التبريزي على القصيدة في شرحه لديوان الحماسة.

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهـــم بالعيكتين لدى معدى ابن بـــراق[1].

كأنما حثحثوا حصـــا قوادمـــه أو أم خشفٍ بذى شث وطبـــاق[2].

لا شيئ أسرع مني ليس ذا عـــذرٍ وذا جناحٍ بجنب الريد خفـــاق[3].

حتى نجوت ولما ينزعوا سلبـــي بوالهٍ من قبيض الشد غيـــداق[4].

وواضح أنه يذكر كيف فات عدائي بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظليم والظبية، وحتى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عدوه، وكأنما جن جنونه. ويمضي فيرسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذي يقدره ويجله، قائلاً:

لكنما عولى إن كنت ذا عـــولٍ على بصيرٍ بكسب الحمد سباق[5].

سباق غايات مجدٍ في عشيرتـــه مرجع الصوت هدا بيـــن أرفـــاق[6].

عاري الظنابيب ممتد نواشـــره مدلاج أدهم واهي الماء غســـاق[7].

حمال ألويةٍ شهاد أنديـــةٍ قوال محكمةٍ جواب آفـــاق[8].

---

(١) العيكتان: موضع. معدي: عدو.

(٢) حثحثوا: حركوا وأثاروا. القوادم: ما يلي الرأس من ريش الجناحين. الحص: جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر لسرعته، يريد بذلك الظليم. الخشف: ولد الظبية الشث والطباق: من نباتات الصحراء.

(٣) ذا العذر: الفرس. والعذر: ما أقبل من شعر الناصية على الوجه. وذا جناح: يريد الطير. الريد: حرف الجبل.

(٤) السلب: ما يسلب في الحرب. الواله: ذاهب العقل. القبيض: السريع. الشد: العدو. غيداق: واسع.

(٥) العول: الاستغاثة، وأصله رفع الصوت كالعويل.

(٦) مرجع الصوت: يصيح آمرًا ناهيًا. أرفاق: رفاق. الهد: الصوت الغليظ.

(٧) عاري الظنابيب: خفيف اللحم، وأصل الظنبوب عظم السابق. النواشر: عروق ظاهر الذراع. ممتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق. الأدهم: الليل. واهي الماء: مطره شديد. غساق: شديد الظلمة.

(٨) المحكمة: الكلمة الفاصلة.

فذاك همي وغزوي استغيث بـــه إذا استغيث بضافي الرأس نعـــاق[1].

فهو إنما يعول على هذا الصعلوك المثالي الذي يشركه في غزواته والذي يتصف بسبقه إلى المحامد في عشيرته، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجرأته في اقتحام الليالي المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذي يحمل لواءها، وإذا كانت السلم كان ذا رأي صائب يتردد في مجالي العشيرة وأنديتها. ولا ينسى أن يضيف إلى هذا الخصال خصلة الكرم، ويجعلها حوارًا بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه، حتى إنه لا يبقي على شيء لغدة، ويزجره زجرًا شديدًا، يقول:

بل من لعذالةٍ خذالةٍ أشـــبٍ حرق باللوم جلدي أي تحـــراق[2].

يقول أهلكت مالا لو قنعت بـــه من ثوب صدقٍ ومن بز وأعـــلاق[3].

عاذلتي إن بعض اللوم معنفـــة وهل متاع وإن أبقيته بـــاق[4].

ولعل في هذه الأبيات وما سبقها ما يدل في وضوح على أن الصعلوك الذي كان يقطع الطريق في الجاهلية كانت تنعكس عليه أحيانًا صفات الفروسية وما بعثت لعصره من سمو في الأخلاق. وما زال تأبط شرًا يقوم بمغامراته حتى قتل في إحدى غاراته بمنازل هذيل.

أما الشنفري فكان من عشيرة الإواس[5] بن الحجر الأزدية اليمنية، فهو قحطاني النسب، ويدل اسمه، ومعناه الغليظ الشفاه[6]، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه، فهي أمة حبشية، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عد في أغربة العرب. ولا نراه ينشأ في قبيلة الأزد، إنما ينشأ في قبيلة

---

(١) غزوى هنا: مقصدي. ضافي الرأس: كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه. نعاق: يكثر من الصياح.

(٢) العذالة: كثير العذل. الخزالة: كثير الخذلان لصاحبه. أشب: معترض. يريد من يعينني على هذا العذالة.

(٣) ثوب صدق: ضد ثوب سوء. البز: الثياب والسلاح. الأعلاق: كرائم المال.

(٤) معنفة: عنف.

(٥) أنظر في ترجمة الشنفري الأغاني (طبع الساسي) ٢١/ ٨٧ وخزانة الأدب ٢/ ١٤ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنباري ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالي ص٢٠٨ وما بعدها، والشعراء الصعاليك ص٣٢٨.

(٦) خزانة الأدب ٢/ ١٦.

فهم، ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه، فتحولت أمه عنها إلى بني فهم، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بني سلامان الأزديين معلنًا في اشعاره أنه يقتص لنفسه منهم. ويقال إن الذي روضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرًا، فكان يغير معه حتى صار لا يُقام لسبيله[1]. وما زال يغير على الأزد، وينكل بها، حتى قتل، فيما يقص الرواة، تسعة وتسعين. انتقامًا لأبيه. وأخيرًا يرصدون له كمينًا، فيقع فيه، ويمثلون به تمثيلاً فظيعًا، يقطعون فيه جسده تقطيعًا، ويرمون به للسباع، ويقال إن رجلاً عثر بجمجمته، فعقرته، فمات. وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة. وخيوط الأسطورة واضحة في مقتل الرجل المكمل للمائة، وتلعب هذه الخيوط في أخباره جميعًا كما تلعب في أخبار تأبط شرًا رفيقه.

وللشنفري ديوان شعر صغير طبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية، ومما اشتهر له لامية العرب، وهي مما نحل عليه، فقد نص الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر[2]، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع في جنوبي اليمن هو إحاظة ليدل على أن قائلها كان يتجول في هذه الأنحاء، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها. وهي تصور تصويرًا حيًا حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية. وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته التائية الطويلة التي رواها المفضل في مفضلياته، ثم مجموعة من المقطوعات، ويبدو في أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيلاً نحيلاً يلبس ثيابًا بالية ونعالاً ممزقة. ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافيًا في تصور حياته ومغامراته، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها في وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة، ثم مضى يصف غارة أغارها على بني سلامان في جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا، ونراه في مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه، وأنهم كانوا راجلين، يقتحمون الصعاب، غير هيابين ولا وجلين، يقول:

وباضعة حمر القسي بعثتها ... ومن يغز يغنم مرة ويشمت[3].

---

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها.

(٢) الأمالي للقالي (الطبعة الأولى) ١/ ١٥٧.

(٣) باضعة: قاطعة. ويريد بها رفاقة الصعاليك، بعثتها: غزوت بها. حمر القسى، يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها

خرجنا من الوادي الذي بين مشعــلٍ وبين الجبا، هيهات، أنشأت سربتـي[1].

أمشي على الأرض التي لن تضرني لأنكي قومًا أو أصادف حمتي[2].

أمشي على أين الغزاة وبعدهــا يقربني منها رواحي وغذوتــي[3].

وهو يعترف في البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غاراتهم أو غزوتهم، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو، بل يدفعهم دفعًا غليه، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء الطريق. ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتر عليهم في الطعام خيفة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعًا، ويقص علينا ذلك في مداعبة طريفة له، إذ يدعوه أمهم، وهو وأصحابه عيالها، يقول:

وأم عيالٍ قد شهدت تقوتهــم إذا أطعمتهم أوتحت وأقلــت[4].

تخاف علينا العيل إن هي أكثــرت ونحن جيــاع، أي آلٍ تألــت[5].

مصعلكة لا يقصر الستر دونهــا ولا ترتجي للبيت إن لم تبيــت[6].

لها وفضة فيها ثلاثون سيحفًــا إذا آنست أولى العدى أقشعــرت[7].

وتأتي العدى بارزًا نصف ساقهــا تجول كعير العانة المتلفــت[8].

إذا فزعوا طارت بأبيض صــارمٍ ورامت بما في جفرها ثم سلــت[9].

تعرضها للشمس. يشمت: يخيب ويفشل.

(١) مشعل والجبا: موضعان. السربة: الجماعة. أنشأت: أظهرت من مكان بعيد.

(٢) لن تضرني: لن يخيفني بها شئ. أنكي العدو: أصيب منه. الحمة: المنية.

(٣) أمشي: إشارة إلى غزوه على رجليه. أين: تعب.

(٤) أم عيال هنا: تأبط شرًا. تقوتهم: تطعمهم. أوتحت: أقلت وتقرت.

(٥) العيل: الفقر وفقد الطعام. أي آل تألت: أي سياسة ساست من آله بمعنى ساسه.

(٦) مصعلكة بكسر اللام: صاحبة صعاليك. لا يقصر الستر دونها: لا تغطي أمرها.

(٧) وفضة: جعبة. سحيف: سهم عريض النصل. العدى: العداءون أو الرجالة. اقشعرت: تهيأت للقتال.

(٨) بارزًا نصف ساقها: كناية عن الجد في الأمر. العير: حمار الوحش. العانة: جماعة أتنه الوحشية.

(٩) فزعوا: دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم. أبيض صارم: سيف قاطع. الجفر: الجعبة. رامت بما فيه أي بسهامه. سلت

حسامٍ كلون الملح صاف حديــده جرازٍ كأقطاع الغدير المنعــت[1].

تراها كأذناب الحسيل صــوادرًا وقد نهلت من الدماء وعلــت[2].

وواضح أنه ينتقل من تصوير شح هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أما حقيقية، فهي صاحبة صعاليك، لا تتخذ الستر ولا تبيت في الخيام، ولها جعبة سهام، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتنه، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغيرون بادرت إلى سهامها، ثم نازلتهم هي ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التي تنهل من دمائهم وتعل، فترى وكأنها أذناب الحسيل، وهي أولاد البقر المستأنسة. ووقف لايل في ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلاً على أصل الشنفري وأنه يمني حقًا، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديمًا إلا في بلاد اليمن[3].

ونمضي مع الشنفري في القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه ان يقصد بها بني سلامان، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفي حقده وغليله، يقول:

جزينا سلامان بن مفرج قرضــها بما قدمت أيديهــم وأزلــت[4].

وهنئ بي قوم وما إن هنأتهــم وأصبحت في قومٍ وليسوا بمنبتــي[5].

شفينا بعبد الله بعض غليلنــا وعوف لدى المعدى أوان استهلــت[6].

وإني لحلو إن أريدت حلاوتــي ومر إذا نفس العزوف استمــرت[1].

سلت السيف: شهرته.

(١) جراز: قاطع. أقطاع الغدير: قطع الماء فيه. شبه السيف بها في اللمعان والبريق.

(٢) الحسيل: جمع حسيلة. وهي أولاد البقر. والنهل: الشرب الأول والعلل: الشرب المكرر.

(٣) راجع ترجمة المفضليات للايل ٢/ ٦٨.

(٤) أزلت: قدمت.

(٥) معنى الشطر الأول أن الأزد يهنئون به وبشجاعته لأنهم منهم وفي الوقت نفسه هو لا يهنؤهم لأنهم لا ينتفعون به. وهو يشير في وضوح إلى أنه ينزل في بني فهم وليس منهم.

(٦) الغليل في أصله حرارة العطش، وهو هنا العطش إلى القتل. المعدي: موضع العدو، والمراد ساحة المعركة، أوان استهلت: في الوقت الذي ارتفعت فيه الأصوات للحرب.

وهو يصبح بأنه جزى بنى سلامان بما قدمت أيديهم، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وببأسه، وأن يقعد لهم ويقعدوا له، لما بينه وبينهم من ثأر قديم، ويحدثنا أنه شفي بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف، ويقول إنه حلو لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل. وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات، حتى أصاب أغداؤه منه مقتلاً فقتلوه.

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الورد العبسي[٢]، وكان أبوه من شجعان قبيلته وأشرافهم، ومن ثم كان له دور بارز في حرب داحس والغبراء[٣]. أما أمه فكانت من نهد من قضاعة، وهي عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر، فآذى ذلك نفسه، إذ أحس في أعماقه من قبلها بعار لا يمحي، يقول[٤]:

وما بي من عارٍ إخـــال علمتـــه سوى أن أخوالي- إذا نسبوا- نهـــد

فهي عاره، الذي حلت البلية عليه منه، والذي دفعه دفعًا إلى الثورة على الأغنياء، وهي ثورة كانت مهذبة، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء، فقبيلته لم تخلعه، بل ظل ينزل بها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم، إذ اتخذ من صعلكته بابًا من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها، ومن أجل ذلك لقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضاقت بهم الدنيا. وفي الأغاني "كان عروة بن الورد، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جدب) شديدة وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة، ثم يحفر لهم الأسراب، ويكنف عليهم الكنف (الحظائر) ويكسبهم. ومن قوى منهم- إما مريضٌ يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته- خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبًا. حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله، وقسم له نصيبه من غنيمة إن

---

(١) العزوف: المنصرف عن الشئ. استمرت: من المرارة.

(٢) راجع في ترجمة عروة الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣/ ٧٣ والشعر والشعراء ٢/ ٦٥٧ والخزانة ٤/ ١٩٤ والشعراء الصعاليك ص٣٢٠.

(٣) أغاني ٣/ ٨٨.

(٤) ديوانه ص١٥٧.

كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمي عروة الصعاليك[1]". وفي خبر آخر أن عبسًا كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة، حتى إذا أبصروا به صرخوا، وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم[2].

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشنفري وتأبط شرًا، وإنما يغزو ليعين الهلاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته، والطريف أنه لم يكن يغير على كريم يبذل ماله للناس، بل كان يتخير لغارته من عرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم، فلا يرعون ضعفًا ولا قرابة ولا حقًا من حقوق أقوامهم[3]. وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضربًا من ضروب النبل الخلقي، وكأنها أصبحت صنوًا للفروسية، بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعي بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته. وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف. وهو يضرب بذلك مثلاً رفيعًا في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار.

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت، طبع مراراً، في جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت، وتردد أشعاره فيه هذه المعاني الكريمة التي قدمناها، وهي معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجابًا شديدًا، فقد كانت قبيلته تأتم به في خلاله وخصاله، وكان معاوية يقول: "لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[4]" أما عبد الملك بن مروان فكان يقول: "من زعم أن حاتمًا أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد"[5] وكان يقول أيضًا: ما يسرني أن أحدًا من العرب ولدني ممن يلدني إلا عروة بن الورد لقوله:

---

(١) أغاني ٣/ ٧٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/ ٦٥٧.

(٢) أغاني ٣/ ٨١.

(٣) أغاني ٣/ ٨١.

(٤) أغاني ٣/ ٧٣.

(٥) أغاني ٣/ ٧٤.

إني امرؤ عافي إنائي شركــة وأنت امرؤ عافي إنائــك واحــد[1].

أتهزأ مني أن سمنت وأن تــرى بجسمي شحوب الحق، والحق جاهــد

أفرق جسمي في جسوم كثيــرةٍ وأحسو قارح الماء، والماء بـارد[2].

وعروة يعبر عن معنى إنساني رفيع، إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مضنى هزيل شاحب اللون، فقال له: إنني يشركني كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة في إنائي أو طعامي، أما أنت فلا يشركك أحد، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامرًا نحيلاً، وما شحوب وجهي إلا أثر من آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية، إنما الخليق بذلك السمين البطين. وما لبث أن قال: إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم، بل كثيرًا ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفيًا بشرب الماء البارد، على حين يعصف الشتاء بزمهريره. والذي لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل في البر والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء. ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعي في أصمعياته[3]، وهي بذلك من أوثق شعره وأصدقه. وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التي تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته في الغزوات والغارات، وقد رد عليها بأنه يبغي حسن الأحدوثة وبقاءها، وأنه إنما يرمي بنفسه في المهالك من أجلها، حتى يغنيها، وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان، وهي تماريه شفقة عليه:

تقول: لك الويلات هل أنــت تــارك ضبوءًا برجلٍ سوداءِ المعاصم تعتري[4]

فهي تقول له إنك لن تنتهي عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية، وحرى ب أن تكف عن ذلك، حتى لا تلقى حتفك، ويرد عليها:

أبي الخفض من يغشاك من ذي قرابةٍ ومن كل سوداء المعاصم تعتري[1].

---

(١) العافي: طالب المعروف. ويريد بقوله: عافي إنائك واحد أنه يأكل وحده.

(٢) حسا الماء: شربه شيئاً بعدشيء. القراح: الخالص الذي لا مخالطه لبن ولا غيره.

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥.

(٤) ضبوء: غزو. رجل: جمع راجل ضد راكب. المنسر كمجلس ومنبر: الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين.

ومستهنئ، زيـد أبـوه، فـلا أرى له مدفعًا، فاقني حياءك وأصبـري[٢].

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته، ونسائها المعوزات، والعفاة، طلاب العطاء من الضعفاء، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعًا. ويعرض عليها صورتين للصعلوك، صورة رديئة، وصورة جيدة، أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملاً، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة، لا يهمه أهله ولا عياله ولا قومهم، يقول:

لحي الله صعلوكًا إذا جن ليلـــه مصافي المشاش آلفا كل مجـــزر[٣].

يعد الغني من دهره كل ليلـــةٍ اصاب قراها من صديق ميســـر[٤].

ينام عشاء ثم يصبح قاعـــدًا يحث الحصا عن جنبه المتعفـــر[٥].

يعين نساء الحي ما يستعنـــه فيضحى طليحًا كالبعير المحســـر[٦].

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه، مما يتساقط من فضلات الموسرين، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله، وحتى هو في النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه. ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة، لأنه يحيا حياة وضيعة. أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة، يقول في وصفه:

ولله صعلوك صحيفـــة وجهـــه كضوء شهاب القابـس المتنـــور[٧].

---

(١) الخفض: الدعة ولين العيش. ويريد بسوداء المعاصم التي أجهدها الجوع والهزال. تعتري: تغشى.

(٢) مستهنيء: طالب للهنء وهو العطاء، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه. أقنى حياءك: صونيه وأحفظيه.

(٣) لحيك قبح ولعن. المشاش: رءوس العظام اللينة. والمجزر: موضع الجزر.

(٤) قراها: طعامها. ميسر: غني كثرت إبله.

(٥) يحث: يحرك.

(٦) الطليح: المعيي، ومثله المحسر.

(٧) صحيفة الوجه: بشرته. الشهاب: شعلة ساطعة من النار. القابس: الذي يقبس النار أو يأخذها. المتنور: المضيئ.

مطلاً على أعدائــه يزجرونــه بساحتهم زجر المنيـح المشهــر[1].

وإن بعدوا لا يأمنون اقترابــه تشوف أهل الغائـب المتنظــرِ[2].

فذلك إن يلق المنيــة يلقهــا حميدًا، وإن يستغنِ يومــًا فأجــدرِ

فهذا هو الصعلوك الذي يعجب به عروة، صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم، فيظفر منهم بكل ما يريد، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له. وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه، بل إنهم لينتظرونه انتظارًا أهل الغائب له، علمًا منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم. ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجرئ إن يمت تظل ذكراه خالدة لمحامه ومناقبه. ويمضي فيحدثنا عن غزواته وغاياتها، يقول:

أيهلك معتم وزيد ولــم أقــم على ندبٍ يومًا ولى نفس مخطر[3].

ستفزع بعد اليأس مــن لا يخافنــا كواسع في أخرى السوام المنفــر[4].

نطاعن عنها أول القــوم بالقنــا وبيضٍ خفافٍ وقعهن مشهــر[5].

ويومًا على غارات نجــد وأهلــه ويومًا بأرضٍ ذات شث وعرعــر[6].

يريح على الليل أضيــاف ماجــدٍ كريمٍ ومالي سارحًا مال مقتــرِ[7].

وهو في أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتا معتم وزيد، وهو قاعد في الحي، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار. لقد خلق لرعاية الضعفاء والهلاك من قبيلته، وهو لذلك

---

(١) مطلاً: مشرفًا. يزجرونه: يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب. المنيح: قدح سريع الخروج ولا نصيب له. المشهر: المشهور.

(٢) تشوف: تطلع. المتنظر: المنتظر قدومه.

(٣) معتم وزيد: بطنان من عبس. ندب: خطر.

(٤) كواسع: خيل تطرد إبلا وتكسعها. السوام: الإبل السائمة. أخرى: آخر. المنفر: المذعور.

(٥) بيض: سيوف. وفي البيت إقواء. ورواية الديوان: ذات لون مشهر، ولو صحت لم يكن في البيت إقواء.

(٦) الشث والعرعر: من أشجار البادية.

(٧) يريح: يرد. ويقصد بالماجد الكريم نفسه، كما يقصد بماله إبله. سارحًا: سائمًا في المرعى. مقتر: فقير مقل.

لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حمى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة، وهم يهجمون تارة في الحجاز وتارة في نجد. وكل ذلك حتى يغنم ما يقدمه لضيفانه، وكم يغنم! إلا أنه لا يبقي على شيء في يده، فماله مال مقتر أو فقير مقل.

والحق أن عروة كان صعلوكًا شريفًا، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضربًا من ضروب السيادة والمروءة، إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعي وما يطوى فيها من إيثار وبرًا لفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء.

٣

شعـراء آخـرون

مر بنا في غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت في أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثاني بالمدينة والواحات المنثورة في شماليها بالحجاز مثل فدك وخيبر ووادي القرى وتسيماء، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية، وإن ظلوا على دينهم، ومما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أي أثر مكتوب، وقد عنى هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية. وأخبارهم في الجاهلية توحي بأن العرب لم يأمنوهم، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديدًا، ومن يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطر- لكيدهم له ونقضهم لما بينهم وبينه عن عهود موثقة مرارًا وتكرارًا- إلى إجائهم عن المدينة، وأتم عمر من بعده هذا الإجلاء عن الجزيرة، من يتابع ذلك يعرف إن العرب كانوا في الجاهلية يجفونهم وينفرون منهم ومن دينهم، فلم يؤثروا فيهم شيئًا، وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية، وينفذ بعضهم إلى النظم بها.

على أنه ينبغي أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم، فلا نثق بكل ما رووه في هذا الصدد، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم. ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلاً[1] في كتابه "طبقات فحول الشعراء" يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له، وهم على التوالي السموأل بن الغريض بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعية بن الغريض أخو السموأل، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيال، ودرهم بن يزيد. ويضيف أبو الفرج في الأغاني[2] وابن هشام في السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دنى وسماك والغريض بن السموأل.

---

(١) ابن سلام ص٢٣٥.

(٢) الأغاني (طبعة الساسي) ١٩/ ٩٤ وما بعدها.

وأشهرهم جميعًا السموأل[1] صاحب حصن الأبلق بتيماء، وكان معاصرًا لامرئ القيس، ومرت بنا أسطورته معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه سلاحه، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني أو الحارث بن ظالم المري على اختلاف الروايات، فطلب منه سلاح امرئ القيس، فأغلق حصنه من دونه، وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن، فأخذه الحارث، وهدده إن لم يعطه السلاح قتل ابنه، فقال له: اقتله، فلن أعطيه لك. وبذلك وفي على غير عادة قومه!. وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى التي عرضت لهذه القصة في إسهاب. ومما نسب إلى السموأل خطأ القصيدة المشهورة:

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه ... فكل رداءٍ يرتديه جميل

وهي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي[2]، وهو شاعر إسلامي. وقد نشر لويس شيخو ديوانًا له برواية نفطويه في مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهي رواية ضعيفة، إذ تشتمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة. وروى الأصمعي تائية له[3]، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال، وهي تستهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط:

نطفة ما منيت يوم منيت ... أمرت أمرها وفيها وبيت[4].

كنها الله في مكانٍ خفي ... وخفي مكانها لو خفيت

أنا ميت إذا ذاك ثمت حي ... ثم بعد الحياة للبعث ميت

وصلة هذه الأبيات بما جاء في القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نطفة يمني وأنه يحيي ثم يموت ثم يبعث؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة، وما حياته الثانية في الآخرة بمستغربة، إنها تلي موته وحياته الأولى التي تحول إليها من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ويقول جل وعز:

---

(١) أنظر ترجمته في الأغاني ١٩/ ٩٨.

(٢) شرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام (طبع لجنة التأليف) ١/ ١١٠.

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص٨٤ وراجع ابن سلام ص٢٣٦.

(٤) ما منيت: ما زائدة. ومنيت: قدرت وخلقت. وبيت: هيئت.

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ). وتردد هذا المعنى في الذكر الحكيم هو الذي يجعلنا نشك في هذه القصيدة، ونعتقد اعتقادًا أنها نُظمت في العصور الإسلامية على هدي التنزيل العزيز، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظم مباشر لبعض آي القرآن الكريم مثل:

ليت شعري! وأشعرن إذا ما قيل إقرأ عنوانها وقريت[1].

وأصل هذا البيت قوله تعالى في سورة الإسراء: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) وعلى هذه الشاكلة:

ميت دهرٍ قد كنت ثم حييت وحياتي رهن بأن ساموت

فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون).

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغي أن نحذر منه، وخاصة حين يُعلى من أخلاقهم ويسمو بها، أو حين يندمج في بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبي في مفضلياته شعرًا ليهودي، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم.

وإذا كان العرب الشماليون في الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى، وإن ظلوا في الجملة يحتفظون بدينهم الوثني ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم، وأنه ينبغي أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم. وكانت المسيحية أمامهم في الشام دينًا للدولة، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا في غير هذا الموضع، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق، واعتنقها اللخميون في أواخر القرن السادس للميلاد، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها في جمهور عربي من سكان الحيرة سمي بالعباديين، وتشير الكلمة التي سموا بها، إلى أنهم عباد الله، وكانوا أخلاطًا من قبائل شتى. وقد انتشرت في الجنوب

---

(١) رواية هذا الشطر في ابن سلام: "قربوها منشورة فقريت". وقريت: لغة في قرأت.

بنجران فكانت مركزًا مهمًا من مراكزها، كما عرفت في بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاعة وكلب وطيئ وبكر وتغلب وتنوخ وتميم، ويزعم اليعقوبي أن نفرًا من مكة تنصروا قبيل الإسلام[1]. وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة في الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحي، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع.

وأشهر شعراء المسيحية في الجاهلية عدى بن زيد[2] شاعر الحيرة المشهور، وهو من العباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية، خدم أبوه في دواوين الفرس وفي دواوين المناذرة بالحيرة، ولما أيفع ابنه عدى عني بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية، فكان يحسن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلم الرمي بالنشاب ولعب العجم على الخيل بالصوالجة. ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز (٥٩٠-٦٢٨م) وعهد إليه فيه بالشئون العربية، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم في بيزنطة بهدية، فلما أتاه بها أكرمه. وفي أثناء عودته مر بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر. وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفى. وظل مدة متنقلاً بين الحيرة والمدائن، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبي قابوس، مع أنهم يقولون إنه لعب دورًا في توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته. ويقال إن الذي أفسد ما بينهما بعض بني مرينا، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذي ولاه ما ولاه. فاضطغن عليه النعمان، وانتهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة، وأمر بحبسه ولم يجده عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار في مديحه. وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه، غير أن الرسول وجد عديًا قد مات في سجنه مختنقًا. وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضبًا شديدًا، وربما كان هذه الغضب أهم الأسباب في قضائه عليه كما مر بنا في غير هذا الموضع.

---

(١) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا) ١/ ٢٩٨ وراجع المحبر لاين حبيب ص٧١، وابن هشام ١/ ٢٣٩.

(٢) أنظر في عدى بن زيد الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢/ ٩٧ وما بعدها، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٧٦ وخزانة الأدب ١/ ١٨٤ وما بعدها والموشح للمرزباني ص٧٢ وكتاب لويس شيخو: "النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية".

وأهم الموضوعات التي يدور فيها شعر عدى الخمر، وذكر الموت والفناء، وهو في الموضوع الأول يعد أبًا لشعراء الخمر في الجاهلية من مثل الأعشى، ثم لمن ظهروا في العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبي نواس. وفي أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادي، وكان أديبًا ظريفًا شاعرًا، وكان لا يصبر عنه، ونظن ظنًا أنه هو الذي وصله بشعر عدى، إذ كان يرويه له ويغني فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت[1]:

بكر العاذلون في وضـــح الصبـــ ـــح يقولون لـي ألا تستفيـــق

لست أدري وقد جفانـي خليلـــي أعدو ياومنـي أم صديـــق

ثم قالوا ألا أصبحونـــا فقامـــت قينة فـــي يمينهـــا إبريـــق[2].

قدمته على عقارٍ كعيـــن الـ ـــديك صفي سلافها الـــراووق[3].

وواضح أن من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومن جاءوا بعده من شعراء الخمريات، وكأن القاسم العبادي هو الذي وجه الوليد ليحتذي في خمرياته على أسلوب عدى وليجرى في طريقته.

ويروي الرواة لعدى بجانب شعره في الخمر أشعارًا في الفناء وزوال الحياة، وهي تجري في أسلوبين: أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية، وأسلوب قصصي يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر[4]:

من رآنا فليحـــدث نفســـه أنه موفٍ على قـــرن زوال[5].

وصروف الدهر لا يبقـــى لهـــا ولما تأتي به صممـــم الجبـــال

---

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٧/ ٦٥.

(٢) أصبحونا: أسقونا خمر الصباح.

(٣) الراووق: الدن.

(٤) الأغاني ٢/ ١٣٤.

(٥) قرن: طرف.

رب كربٍ قد أناخــوا عندنــا ... يشربون الخمر بالمــاء الــزلال[1].

عمورا دهرًا بعيــشٍ حســنٍ ... آمني دهرهــم غيــر عجــالِ

ثم أضحوا عصف الدهــر بهــم ... وكذاك الدهر يــودي بالرجــال

وكذاك الدهــر يرمــى بالفتــى ... في طلاب العيش حــالا بعد حــال

فالدنيا إلى زوال وكل من عليها فان، حتى صم الجبال، ولا يغرنك ما يغرق فيه بعض الناس من ترف ونعيم، فعما قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن قبلهم. ومن الأسلوب الثاني قوله[2]:

أيها الشامت المعيـر بالـدهـ ... ـر أأنت المبــرأ الموفــور

أم لديك العهد الوثيق مــن الأيـ ... ـام بل أنت جاهــل مغرور

من رأيت المنون خلدن أم مــن ... ذا عليه من أن يضام خفير[3].

أين كسري: كسري الملــوك أنوشر ... وأن أم أين قبله سابــور

وبنو الأصفر الكرام ملــوك الـ ... ـروم لم يبق منهم مذكــور

ويستمر في ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصورًا شامخة، وانتهي أمرهم إلى الفناء، وطوتهم الحفر والقبور كأن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، إلى أن يقول:

ثم بعد الفلاح والملــك والإمـ ... ـة وارتهم هنــاك القبــور(٤).

ثم صاروا كأنهــم ورق جـ ... ـف فألوت به الصبا والدبــور(٥).

---

(١) الزلال: الصافي العذب.

(٢) الأغاني ٢/ ١٣٨.

(٣) المنون: الموت، وأعاد عليه الضمير مجموعًا.

(٤) الإمة: النعمة.

(٥) ألوت: ذهبت. الصبا والدبور: ريحان.

ويكثر البحتري في حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التي يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين. ونحن لا نطمئن إليكل هذه الأشعار، بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى، فإن القصاص والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعارًا كثيرة حتى ليمكن القول بأن أكثر ما روي له من أشعار منحول عليه، ولعل ذلك ما جعل اللغويين يرفضون الاستشهاد بشعره، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال: "عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه، فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد[1]" وأكبر الظن أن هذا هو السبب في أن المفضل والأصمعي لم يشبتا له في مجموعتيهما شيئًا من شعره. وقد قلنا في غير هذا الموضع إنه لا يفصح في شعره عن فكرة التثليث المسيحية، وينبغي أن لا نغلو في فهم مسيحية أمثال عدى في الجاهلية، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم، بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيناهم يذكرون أحيانًا الرهبان والنوقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية في النصرانية، وهو مخطئ في ذلك خطأ بينًا.

وربما كان أهم شاعر جاهلي وثني ظهر عنده واضحًا التأثر بأهل الكتاب أمية[2] ابن أبي الصلت الثقفي، وهو من الطائف ويقال إنه اتصل بالأحبار وتحنف ولبس المسوح وتنسك. وكان يزور مة قبل البعثة، وله مدائح في سيد من سادتها المشهورين هو عبد الله بن جدعان، الذي يقول له في بعض مديحه[3]:

أأذكر حاجتي أم قــد كفانــي ... حياؤك إن شيمتك الحياء

كريــم لا يغيــره صبــاح ... عن الخلق الكريم ولا مساء

(١) ابن سلام ص١١٧ وانظر الحيوان ٧/ ١٤٩ والشعر والشعراء ١/ ١٧٦.

(٢) أنظر في أمية الأغاني (طبعة الساسي) ١٦/ ٦٩ وطبعة دار الكتب ٨/ ٣٢٨ وما بعدها وابن سلام ص٢٢٠ وما بعدها وخزانة الأدب ١/ ١٣٠ وحياة الحيوان للدميري ٢/ ١٥٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٤٢٩.

(٣) ابن سلام ص٢٢٢ والأغاني ٨/ ٣٢٨.

وأرضك كل مكرمــةٍ بنتهــا بنو تيمٍ وأنت لهم سماء[1].

ويقول أيضًا[2]:

عطاؤك زين لامرئ قد حبوته بخيرٍ، وما كل العطاء يزين

وليس بشينٍ لامرئ بذل وجهه إليك، كما بعض السؤال يشين

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضله الله فعاداه، وزين له الشيطان سوء عمله وأغواه، فلم يسلم، بل أخذ في معاندة الرسول ومحادته بسلانه، ولما هزمت قريش في موقعة بدر هزيمتها المشهورة، فقتل كثير من رجالها وسادتها حز ذلك في نفسه، فناح على قتلاها بقصيدة طويلة يقول فيها[3]:

مــاذا ببــدرٍ فالعقــنـ ـقل من مرازبةٍ جحاجــح[4].

هلا بكيت علــى الكــرا م بني الكرام أولــى الممــادح

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها في ليبزج سنة ١٩٩١ وفي سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت في بيروت طائفة من أشعاره باسم ديوان أمية. وتدور هذه الأشعار في موضوعين أساسيين أما الموضوع الأول فيتحدث فيه عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلاً بذلك على وجود الله، ومتحدثًا عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله[5]:

إله العالمين وكــل أرضٍ ورب الراسيات مــن الجبــال

---

(١) بنوتيم: عشيرة عبد اله بن جدعان.

(٢) ابن سلام ص٢٢٢ والأغاني ٨/ ٣٢٨.

(٣) ابن سلام ص٢٢١.

(٤) العقنقل: كثيب رمل ببدر. المرزبة: جمع مرزبان وهو رئيس القوم المقدم عليهم. الجحاجح: جمع جحجاح وهو السيد الكريم.

(٥) ديوان أمية (طبعة شولتهس) ص٣٠.

بناها وابتنى سبعـًا شـدادًا ... بلا عمدٍ يرين ولا رحـال[1].

وسواهـا وزينهـا بنـورٍ ... من الشمس المضيئة والهـلال

ومن شهبٍ تلألأ في دجاهـا ... مراميها أشد مـن النصـال[2].

وشق الأرض فانبجست عيونـًا ... وأنهارًا من العـذب الـزلال[3].

وكل معمـرٍ لابـد يومـًا ... وذي دنيا يصيـر إلـى زوال

ويفنى بعد جدتـه ويبلـى ... سوى الباقي المقدس ذي الجـلال

وسيق المجرمون وهـم عـراة ... إلى ذات المقامع والنكـال[4].

فنادوا ويلنـا ويـلاً طويـلاً ... وعجوا في سلاسلها الطـوال[5].

فليسوا ميتيـن فيستريحـوا ... وكلهم بحر النسـار صـال

وحل المتقون بـدارِ صـدقٍ ... وعيش ناعمٍ تحت الظـلال

وهذه المعاني تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة، وأساوبها ضعيف واهن، ولذلك كنا نظن ظنًا أنها وما يماثلها مما نحل على أمية. والموضوع الثاني الذي يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتهامًا، بل لعل الاتهام فيه أوضح، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء، قصصًا لا يكاد يفترق في شيء عما جاء في القرآن الكريم كقوله في رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من افتدائه بذبح عظيم[6]:

---

(١) السبع الشداد: السموات السسبع.

(٢) النصال: جمع نصل وهو حد السيف.

(٣) انبجست: انفجرت.

(٤) المقامع: محاجن من حديد يضرب بها الحيوان الشكس.

(٥) عجوا: صاحوا ورفعوا أصواتهم.

(٦) ديوان أمية ص ٣٣.

ولإبراهيـــم الموفي بالـــنذ ... راحتساباً وحامـــل الأجـــزال[1].

بكره لم يكن ليصبـــر عنـــه ... أو يراه في معشرٍ أقتـال

يا بني أنني نذرتـــك للـ ... ـه شحيطًا فاصبر فدى لك حالي[2].

فأجاب الغلام: أن قال فـــوه ... كل شيئ لله غيـــر انتحـــال

فاقض ما قد نذرت لله وأكفـــف ... عن دمي أن يمســه سربالـي[3].

بينما يخلع السرابـــيل عنـــه ... فكه ربـه بكبـــشٍ جـلال[4].

قال: خذه وأرسل ابنك إنـــي ... للذي إن فعلتمـا غيـــر قـــال

وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ في عصور متأخرة عن الجاهلية. وقد ذهب هيار يزعم حين أطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدرًا من مصادر القرآن الكريم[5]، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بين الانتحال، ولما تورط في هذا الخطأ البين، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين[6]. ويظهر أن الانتحال على أمية قديم، ففي ابن سلام أن الحسن بن على بن أبي طالب استنشد النابغة الجعدي بعض شعره، فأنشده قصيدته:

الحمـــد لله لا شريـــك لـــه ... من لم يقلها فنفســـه ظلمـــاً

فقال له: "يا أبا ليلى ما كانا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي اللت، قال: يا بن رسول الله! والله إني لأول الناس قالها[7]" وكأن اختلاطًا حدث بين شعر النابغة الجعدي وأمية. ومما نحلوا أمية

---

(١) الأجزال: العظائم.

(٢) شطيحًا: ذبيحًا.

(٣) سربالي: ثوبي.

(٤) جلال: عظيم.

(٥) أنظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية قسم ٤ (١٩٠٤) ص١٢٥.

(٦) أنظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان ١/ ١١٣ ودائرة المعارف الإسلامية في "أمية".

(٧) ابن سلام ص١٠٦ وما بعدها.

من قديم أيضًا أشعار مختلفة في قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات، ويشركه عدى في بعض هذه الجوانب، وكأن القصاص والوعاظ أجروا على لسانهما كثيرًا من الشعر الذي أرادوا به إلى العظة والاعتبار، وإنما نقول إنهم نحلوها ذلك من قديم، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعارًا كثيرة في هذا الاتجاه[1].

وواضح مما قدمناه أن ما روي من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصر من العرب في الجاهلية وكذلك من تحنف كأمية دخله وضع كثير، ولذلك ينبغي أن نحترس منه وأن لا نتسع في الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم، إذ يجري فيه الانتحال، وقد دخله كثير من الغثاء والإسفاف في اللفظ والتعبير.

(١) أنظر مثلاً الحيوان ٢/ ٣٢٠ وما بعدها، ٣/ ٥١١، ٤/ ١٩٦ وما بعده.